المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثاني والثلاثين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٧ — الموافق ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٢٤

الدكتور نقولا نمر

يصدق على كثيرين من الناس ما قالهُ الشيخ ناصيف اليازجي في مقاماتهِ

" لا يعرف القوم الفتى الا متى مات ليعطى حقهُ تحت البلى "

فكم من رجل يدوي ذكرهُ في الخافقين ويقف الشعراء على بابهِ وتنظم القصائد في مدحهِ ويحتفل بهِ كيفما حل" وارتحل ثم اذا مات نُسي اسمهُ ولم يعد يذكر الا كأحد الذين طوتهم الغبراء

وكم من رجل يسير بين اقرانهِ فلا تسمع لهُ صوتاً ولا ترى لهُ اثراً من آثار الجاه والجبروت ولا يذكر اسمهُ في الصحف والمجلات مقروناً بالتبجيل والتمجيد بل لا تعلم من امرهِ شيئاً يميزهُ عن سائر الناس ثم اذا فارق الحياة الدنيا عرفت عنهُ ما لم تكن تعرفهُ " كشجة من عنبر فاحت فان طُئت تضوّع نشرها " وبكاهُ صحبهُ ومعارفهُ بدموع سخان وذكروا من فواضلهِ وعوارفهِ ما يتضوّع ذكرهُ كعبير الجنان

على هذا النسق كان صاحب الترجمة فاننا لم نكد نواريهِ التراب حتى سمعنا من افواه كثيرين من الثقات ان دأبهُ كان تطبيب الاصدقاء عموماً والفقراء خصوصاً غير طالب أجراً ولا شكوراً . وكثيراً ما كان يطب المريض ويعطيهِ الدواء ويعودهُ المرة بعد الأخرى الى ان ينال الشفاء ثم اذا عرض عليهِ أجرة العيادة او ثمن الدواء نظر اليهِ باسماً واشاح عنهُ معرضاً فضلاً عمَّا امتاز بهِ من المهارة في التشخيص واللطف في المعالجة حتى لقد أُقيمت المناحات عليهِ في بيوت كثيرة يوم شاع نعيهُ

وكان يجود بمالهِ كما يجود بعلمهِ لم يقصدهُ ذو حاجة الا قضاها لهُ اذا كان في وسعهِ قضاؤها ولقد وجدنا بين اوراقهِ صكوكاً مضت عليها السنون وهو لم يطالب بها . لا لانهُ كان غنياً فيستغني عن جانب كبير من الاموال كما يفعل بعض الموسرين بل لانهُ كان

يحسب ان فضول المال ذاهبة جزافاً فالقليل الذي يزيد عن نفقاته مما يكتسبهُ بصناعتهِ لا يمنعهُ عن المحتاجين اليهِ جارياً على موجب الآية القائلة لا تمنع الخير عن اهلهِ وفي طاقة يدك عملهُ . وهذه الاخلاق التي امتاز بها هي التي دعتنا الى تسطير هذه السطور

وُلد الفقيد في حاصبيا مدينة وادي التيم سنة ١٨٥٨ ويتم من ابيهِ في مذابح سنة ١٨٦٠ فانتقلت بهِ امهُ مع اخيهِ واختهِ الى مدينة صيداء ثم الى مدينة بيروت واقامت على تربيتهم وكانت من فضليات النساء واحسنهنَّ تدبيراً ثم انتقلت بهم الى مدينة القدس الشريف ووضعت الولدين في المدرسة الانكليزية فتعلَّما فيها مبادئ القراءة العربية والانكليزية ثم ادخلتهما المدرسة الكلية الاميركية في بيروت فاتمَّ الفقيد دروسهُ العلية فيها سنة ١٨٧٦ وذهب الى دمشق يدرّس في احدى مدارسها ثم عاد الى المدرسة الكلية فدرس فيها الطب ونال الشهادة الطبية سنة ١٨٨٣ . وعُرف بالدعة وسلامة النية وقلة الاهتمام بمشاغل الحياة

واشتغل مدةً بتحرير مجلة الطبيب ولهُ فيها مقالات حسان انشاء وترجمةً . ثم قدم هذا القطر وانتظم في خدمة الحكومة طبيباً في الجيش المصري وشهد بعض المعارك الحربية في الحدود وكان اكثر اقامتهِ في اسوان ووادي حلفا فاستمالت قلوب اخوانهِ الضباط بشهامتهِ وكرم اخلاقهِ ولين عريكتهِ وتعرَّف بكثيرين من السيَّاح الاوربيين والاميركيين فانهُ كان يعالج مرضاهم ويعتني بهم كأنهم من ذويهِ فلجَّ عليهِ كثيرون منهم بالذهاب الى اوربا واميركا وما زال بعض الاميركيين يلحون في دعوتهِ حتى لبَّى ظنهم وقصد الولايات المتحدة الاميركية فلقي من اصدقائهِ فيها كلَّ مجاملة وكانوا يقيمون الحفلات الخصوصية اكراماً لهُ وقد رأينا بين اوراقهِ خطباً تلاها في بعض تلك المجتمعات ومنها خطبة القاها في حفلة دعاهُ اليها ضباط الآلاي السابع من الجنود الاميركية . ويظهر من الخطبة ان رجال ذلك الالاي من نخبة البيوت الاميركية وكانوا يعملون اعمالهم ثم يخرجون للتمرُّن الحربي فقد جاء في الخطبة ما نصهُ

I am really astonished to see that you, the choicest young gentlemen of the best American families of New York, should join this regiment and after attending to your own private business should sacrifice your time to military exercise.

اي " انني متعجب جداً من رؤيتي هنا نخبة شبان الأُسر الاميركية في نيويورك منضمين الى هذا الالاي وانكم تخصون وقتكم للتمارين الحربية بعد ما تتمون اعمالكم اليومية " . ثم انتقل الى الكلام على محبة الوطن التي دعت اولئك الرجال الى التطوُّع في خدمة بلادهم

وقابل رئيس الولايات المتحدة ولي منهُ كل اكرام وكتب رسائل كثيرة عن رحلتهِ هذه

نشرت في المقطم . ولما رأى ان اقامتهُ في اميركا ستطول رغماً عنهُ وعلى خلاف ما قدَّرهُ ارسل واستعفى من خدمة الجيش المصري

وكان كاتباً بالطبع مقتدراً على الوصف الى حدٍّ يجعلهُ في الطبقة الاولى بين الكتَّاب بالعربية والانكليزية كما يظهر من مقالاتهِ وخطبهِ المنشورة في الطبيب والمقتطف ومن كتبهِ الكثيرة التي كان يراسل بها اصدقاءهُ ولاسيما اذا قصد ان يصف بلاداً مرَّ فيها او حوادث جرت لهُ فان مكاتيبهُ التي بعث بها الينا من اميركا ووصف فيها رحلتهُ اليها لو حفظت ونشرت لجاءت من كتب الرحلات الجليلة وكذلك مكاتيبهُ عن رحلتهِ الى ارتريا في بلاد الحبشة حيث ذهب مرتين لمشاهدة مناجم الذهب فانهُ وصف بها تلك البلاد وصفاً منقطع النظير جبالها ووهادها وانجمها واشجارها وحيواناتها الاهلية ووحوشها البرية واطيارها وحشراتها وعادات اهلها الاحباش ومعايشهم وما هم فيهِ من الفقر المدقع والذل الذي امات نفوسهم وكاد يفنيهم وخصب البلاد وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية وتقلب الهواء فيها وكثرة الغواري في فيافيها حتى كان رجالهُ يضطرون ان يوقدوا النار حولهم الليل كلهُ ردعاً لها الى غير ذلك من الوصف الذي لا يُرَى الاَّ في كتب اهل الرحلات الكبيرة كبيك وستانلي وابن بطوطة

والظاهر ان تقلب الهواء وفساد الماء في تلك البلاد أضرَّا بهِ فرجع في الصيف الماضي مخرف الصحة وأُصيب بداء عياء ضاعت فيهِ حيلتهُ وحيل اخوانهِ الاطباء فذهب الى بلاد الشام مستشفياً وعاد منها وقد تمكن الداء منهُ فعلم ان لا مردَّ لما قضاهُ الله وجعل يحدِّث بمكارم المرسلين الاميركيين وسائر الاصدقاء الذين اعتنوا بهِ في مدينة بيروت ويودُّ ان يفسح لهُ في الاجل لكي يقوم بشكرهم ثم يلتفت الى الحياة الدنيا ويقول مضى شطرها الافضل ولست بمصيب منها غير ما اصبت ولا آسفُ على ما فات الى ان فاضت روحهُ في الخامسة والعشرين من شهر نوفمبر الماضي قبل نصف الليل بدقائق قليلة وكان قد شعر بدنو الاجل وطلب من الذين حولهُ ان لا يكلموهُ ثم أغمض عينيهِ ولفظ انفاسهُ الاخيرة فذهب الى رحمة مولاهُ

فحيَّ ينفح الايام من طيب ذكرهِ ثناءٌ كأنَّ العنبر الورد شامله

وشاع نعيهُ في اليوم التالي فوفد لتعزية شقيقهِ الدكتور فارس نمر احد منشئي هذه المجلة جمهور غفير من الاصدقاء والمحبين وبينهم كثيرون من الامراء والعظماء والرؤساء الروحيين ومشوا بنعشهِ في موكب مهيب الى الكنيسة الانجيلية فصلوا عليهِ ثم ساروا بهِ الى المدفن حيث واروا جسمهُ التراب

منزلاً موحشاً وان كان معمو راً بجمِّ الصديق والاحباب

وبلّوا رمسهُ بدمعي المذاعِ وغطوهُ بأكاليل الازهار ولسان الحال ينادي قائلاً

عبس الخد والثرى منك وجهاً غير ما عابسٍ ولا قطّابِ
اطفأ الخد والثرى لبك السر جّ سفى وقت ظلمة الالباب

فيجيبهُ لسان العقل والرجاء نعم

كل بيت للهدم ما بنتِ انور قد والسيد الرفيعُ العمادِ

ولكن هذه البيوت من التراب فالى التراب تعود واما النفوس والافعال فلا تفنى ولا تلحد بل تعود الى مصدرها مشربلةً بالخلود . الاّ اننا لانلام اذا شكونا فراقاً عاجلاً مثل هذا ورداء عياء حرمنا مشاهدة خليل الصبا ورفيق الحياة

وفاجعُ موت لا عدوٌ يخافهُ فيبقي ولا يلقى صديقاً يجاملهُ
سنشكوهُ اعلاناً وسرًّا وبثّةً شكيةَ مَن لا يستطيع يقاتلهُ

وكاس الفراق لا بدّ منها ولكنها مرة المذاق ولاسيما اذا جاء على غير انتظار ونيل ان لم تكاليف الحياة . ولقد اصبنا بما اصيب بهِ كلُّ حيّ

وادّبنا ما ادّب الناس قبلنا ولكنهُ لم يبقَ للصبر موضعُ

فلا عزاء لنا الاّ بما رأيناهُ من مجاملة الاصدقاء وما عرفناهُ من اخلاق فقيدنا التي تذكر بالمدح والثناء

الاستاذ روبرت وست

لم نكد نكفكف الدمع على اخينا الدكتور نقولا ترحني وافانا نعي صديقنا الاستاذ وست احد اساتذة المدرسة الكلية الاميركية وجاءتنا معهُ السطور التالية في ترجمتهِ قال الكاتبُ

"منذ ثلاث وعشرين سنة قدم شابٌ اميركانيٌّ الى المدرسة الكلية الانجيليّة في بيروت ليعلّم فيها وبعد مدّة ضمّ الى عمدتها وجعل استاذاً للرياضيات ومديراً للرصد الفلكي وقد اجتمع في ذلك الشخص الادب الرائع والمدارك السامية فأحبهُ التلامذة واحترموهُ وادركت العمدة اقتدارهُ فكانت تسند اليهِ من وقتٍ الى آخر في القيام بمهام عظيمة داخلية وخارجية مثل ادارة اشغال الابنية الجديدة وتدبير حسابات المالية وتنظيم شؤون الاستعدادية والسعي في ربط مدارس سوريا عمومًا بالكلية وغير ذلك من الشؤون . وكان هذا المقدام لايأبى بازدحام الاعمال عليهِ فكان يقضي الواجبات بالمدوء والسكينة حاسبًا خير الكلية خيرهُ